

الفصل الثالث

جوانبُ ابن زَيْدُون

١ - ديوانه

لابن زيدون ديوان كبير ، نشره الأستاذان كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة ، وهو يجرى على النمط المعروف لدواوين الشعر العربي ، من حيث الإيجاز في تقديم القصائد ، وعدم ذكر الظروف المختلفة التي نُظمت فيها ، ولا ريب في أن هذا يقيم شبكة من الصعوبات في دراسة الشاعر وشعره .

وقد تعاقبت القصائد بدون نظام ، فلم يُراعَ فيها أي ترتيب تاريخي ، وهذا عيب من عيوب الدواوين العربية أيضاً ، وكأن الشعراء لم يُعْنوا بأن يعرضوا على قرائهم المراحل التاريخية لشعرهم ، إنما عنوا بأن يعرضوا خيراً ما نظموه وأجمل ما تغنّوا به ، فضاع تاريخهم الفني في غمار ما طلبوه من المجد الأدبي .

ومن هنا كانت دواوين الشعر العربي قلما تصور المحاولات الأولى التي حاولها الشاعر ، وهو يُمرن نفسه للدخول في هذا الميدان : ميدان صناعته ، وكأنه رأى فيها قصوراً يهبط به عن الأفق الأعلى الذي يريد أن يخلُق فيه بين زملائه المعاصرين والسابقين ، فنفاها في أكثر الأحوال من ديوانه ، ولم يُثبت منها إلا ما قد يدل على مستوى براعته المبكرة .

وهذا هو السبب في أننا إذا قرأنا لشاعر ديوانه لم نجد شعره يختلف من حيث الجودة والرداءة ، فالغالب المعتاد أن نجده يَطَّرِدُ في مستوى فني واحد ، لأنه في حقيقة الأمر منتخبات روعى فيها أن تعبر أقوى تعبير عن مدى إحسانه وتفوقه في فنه .

وديوان ابن زيدون لا يَشُدُّ على هذه الأصول المألوفة في دواوين الشعر العربي ، فليس فيه ما يدل على الظروف التي أنشأ فيها هذه القصيدة أو تلك ،

إلا ما قد يقال عرضاً من أنها قيلت في فلان . وبعد ذلك لا نجد إشارة دالة على تاريخ القصيدة ، كما لا نجد أى بيان عن تناول ابن زيدون لصناعته ، وكيف بدأ عمله فيها ، وكيف تقدم في هذا العمل ، فإن الديوان وكتب الأدب الأندلسية لم تحتفظ بتجربة من تجاربه الأولى سوى مقطوعة واحدة زعم بعض^(١) الرواة أنه ألفها في صباه ، إذ يقول :

أخذتُ ثلثَ الهوى غصباولى ثلثُ وللمحبين فيما بينهم ثلثُ
تالله لو حلف العشاق أنهم موتى من الوجد يوم البين ما حثوا
قومٌ إذا هجروا من بعد ما وصلوا ماتوا فإن عاد من يهوونهُ بعثوا
ترى المحبين صرعى في عراضهم كفتية الكهف ما يدرون ما لبثوا
وواضح أن هذه المقطوعة ليست أولى تجاربه الفنية ، بل هى ثمرة تجارب كثيرة تقدمتها قبل أن يصل إلى صنعها . وقد يكون الشيء المهم الذى تشير إليه روايتها ، هو أنه بدأ حياته الأدبية شاعرٌ حُبٌ وصبابة .

ومن يرجع إلى ديوانه يستطيع أن يلاحظ في وضوح أن الموضوعات الأساسية التى تتوزع شعره هى الغزل ، والمديح ويدخل فيه ضرب من الاستعطاف . ويقع الغزل فى أعلى الصفحات من حيث التاريخ والزمن الذى كان الشاعر ينظم فيه شعره ، لا لما توحى به الرواية فى مقطوعة الغزل السابقة فحسب ، بل لأن مدائحه التى تشغل أكثر الصحف فى ديوانه ليس بينها واحدة تسبق عصر أبى الحزم جهور . ونفس مدائحه لأبى الحزم إنما تبدأ مع سجنه . فإذا عرفنا أن القاضى الذى سجنه ، وهو ابن المكوى ، تولى القضاء سنة ٤٣٢ للهجرة كان معنى ذلك أن مدائحه فى أبى الحزم لا تسبق هذا التاريخ . حقاً فى الديوان إشارة إلى أنه كان يمدحه قبل سجنه^(٢) . ولكن الديوان لم يحتفظ بشيء يوضح هذا المديح توضيحاً كافياً .

وإذن فشعر المديح المنشور فى الديوان متأخر عن شعر الغزل ، ومثله شعر الاستعطاف ، لسبب بسيط ، وهو أنه نظمها أثناء

(١) انظر المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى (نشر دوزى) ص ٧٦ .

(٢) الديوان ص ٦٠ .

سجنه ، فطبعي أن يتأخر هو أيضاً . ونحن نعرف أن سجنه كان أثراً من آثار انصراف ولادة عنه إلى ابن عبدوس ، فبديهي أن يكون حبه لها وشعره فيها سابقاً لشعر المديح والاستعطاف المبهوث في الديوان ، ما دام هذا الشعر مرتبطاً بالسجن ، لا يتقدمه ولا يسبقه .

وليس بين أيدينا ما يدل دلالة قاطعة على السنة التي ألهم فيها هذا الحب ، ولكن من المؤكد أنه لم يسبق وفاة المستكفي (٤١٤ - ٤١٦ هـ) ففتاته لم تفتح أبوابها للشعراء والأدباء إلا بعد زوال دولته ، بل نظن ظناً أنها لم تفتح هذه الأبواب إلا بعد سقوط الدولة الأموية سنة ٤٢٣ هـ .

ومعنى ذلك أننا نرجح أن يكون حب ابن زيدون لولادة تأخر إلى عصر أبي الحزم جهور ، حين هدأت قرطبة وهدأت ثورات البربر ، وسكن الناس إلى حياة فيها هدوء ودعة ، وفيها أمن واطمئنان ، وفيها ما يكفل الفرص لالتقاء العشاق في القصور وبين الرياض .

ومهما يكن فشعر الحب عند ابن زيدون هو أقدم ضروب الشعر التي في ديوانه ، ومن الممكن أن تُعرف أطوار هذا الشعر والمراحل التي تنقل فيها ، لأنها تحابا ، ثم وقعت بينهما الجفوة ، أو بعبارة أدق جففت ولادة عاشقها ، وانصرفت عنه . فن الوجهة النفسية اختلف موقفه ، إذ كان ينعم بالحب وأصبح يَغصُّ بالمحجر ، فلا بد أن يختلف شعره ، كما تختلف النعمة المفرحة من النعمة المحزنة . ونحن نستطيع أن نضع في الدور الأول كل المقطوعات التي لا تعبر عن تباريح المحجر ولا عن عذاب الصدود ، إنما هي أنفاس الحب الحارة تتحول شعراً على نحو ما نرى في قوله :

وشادن أسأله قهوةً فجادَ بالقهوة والورد
فبتُّ أسقى الراح من ريقه وأجنتني الورد من الخد

وقوله :

يا مخجل الغصن الفيتان إن خطرا وفاضح الرشيأ الوسنان إن نظرا
ما كان حُبك إلا فتنةٌ قدِرتُ هل يستطيع الفتى أن يدفع القدارا

وقوله :

لقد رأيتك الأمانى رضا فلم تتعدك
يا ليت مالك عندي من الهوى لى عندك
فطال ليلى بعدى كطول ليلى بعدك
الدهر عبدى لما أصبحت فى الحب عبدك

وقوله :

لعمري لئن قلت إليك رسائلى لأنت الذى نفسى عليه تدوب
فلا تحسبوا أنى تبدلت غيركم ولا أن قلبى من هواك يتوب
وقوله :

لئن كنت فى السن تيرب الهلال لقد فقت فى الحسن بدر الكمال
لقد بلغتنى دواعى هواك إلى غاية ما جرت لى ببال
فقل للهوى يجر ميلء العنان فيدان قلبى رحيب المجال
وقوله :

هل لداعيك مجيب أم لشاكيك طيب
يا قريباً حين ينأى حاضراً حين يغيب
كيف يسلك محب زانه منك حبيب
إنما أنت نسيم تتلقاه القلوب

فهذه وما يماثلها فى ديوانه مقطوعات نظمها وهو يرتشف رحيق السعادة من حبه ، وتنعم عيناه بحبيبه ووصلها وقرئها .

وتأتى وراءها أشعار أخرى فى الحب ليس فيها هناة ولا نشوة ، وإنما فيها الحرقه واللوعة ، وفيها الشكوى من الوشاة ودمجر الحبيب بعد الوصال ، والدنيا مظلمة من حول العاشق وعيناه مغرورقتان بالدموع ، على شاكلة قوله :

أرخصتني من بعدما أغلبتني وحططتني ولطالما أعلبتني
كنت المنى فأذقتني غصص الأذى يا ليتني ما فهت فيك بلبتني

وقوله :

يا غزالاً أصارني
إني مذ هجرتني
ليت حظي إشارةً
ليس لي عنك مذهبٌ
موثقاً في يد المحنِّ
لم أذق لذة الوسنِّ
منك أو لحظةً عنِّي^(١)
فكما شئت لي فكن

وقوله :

أيوحشني الزمانُ وأنت أنسي
وأغرسُ في محبتك الأمانِي
لقد جازيت غدرًا عن وفائي
ولو أن الزمانَ أطاع حكْمِي
ويظلمُ لي النهارُ وأنت شمسي
فأجني الموتَ من ثمراتِ غرسي
وبعت مودتي ظلماً ببخس
فديتكَ من مكارهه بنفسِي

وقوله :

كم ذا أريد ولا أَرادُ
أصقِي الودادَ مدلاً
يَقضي عليَّ دلالُهُ
كيف السلوُّ عن الذي
ملك القلوبَ بحسنه
يا هاجري كم أستفِي
أفلا رثيتَ لمن يبي
إن أجنَ ذنباً في الهوى
كان الرضا وأعيذُهُ
يا سُوءَ ما لقيَ الفؤادُ
لم يَصِف لي منه الودادُ
في كل حين أو يكادُ
مثواه من قلبي السوادُ
فلها إذا أمرَ انقيادُ
دُ الصبر عنك فلا أفادُ
تُ وحشُو مقلته السهادُ
خطأً فقد يكبُّ الجوادُ
أن يُعقب الكونَ الفسادُ

فالدنيا عابسة من حوله ، وكبده تنفتحت حسرة ، وقلبه يتقطع ألماً ، وكأنما
أغمدت فيه خنجراً ، وهو ينادى بأعلى صوته ولا من سميع ، ويجأر بالدعاء
ولا من مجيب . ويظل كاسفاً مقهوراً وعاشقاً مجزوماً ، ويدخل السجن ، وتشد

(١) عن : عارضة .

به تباريح حبه ، وتشتد الغياهب والظلمات من حوله ، ويستمر يشجينا يشدوه
بانثا لواعج عشقه .

وواضح أن هذه الصورة من غزله تباين الصورة الأولى ، فقد فرت منه
السعادة التي كان ينشدها ولم يعد له منها إلا عذاب السجن والألم والفراغ ، فقد
هامت صاحبه بابن عبدوس ، وسدت منافذ سمعها أمام شعره ، فلم تعد تنفعه
تعاويذه وتماثمه .

وخرج من السجن ، وهو يكاد يموت كذا ، فالعاشقة قد طارت عن
عُشٍّ غرامها إلى الأبد ، وأصبح من المستحيل أن تعود إليه ، ومع ذلك أمسك
بقيارته ، وتغنى عليها ألحاناً شجية اعتصر فيها قلبه وفؤاده . وأشفق عليه أبو الوليد
ابن جهور ، فقد ألقى إليه بمقاليد دولته ، وجعله وزيراً ومستشاراً له ، ولا تزال
العبرات في عينيه ، فعينه سفيراً بينه وبين ملوك الطوائف لعله يتعزى أو يتسلى ،
ولكن الحنين كان يعاوده من حين إلى حين ، فكان يفرغ إلى قيثارته يبكي
معاهد قرطبة ، وهو إنما يبكي حبه الدائر ، وحظه العائر .

وعلى هذه الشاكلة يمكن أن يوزع شعر الحب عند ابن زيدون على أدوار
ثلاثة : دور وصله ودور هجره ودور يأسه أو دور الذكرى ، وينتظم في
الدور الأخير مقدمات مدائحه ، ويغلب فيها أن يجعل صاحبه محصنة منيعة ،
تحميها الرماح والسيوف ، فلا يستطيع أحد الدنو منها ولا القرب من دارها ،
إلا أن تزهق نفسه ويستباح دمه .

وإذا كان من الممكن أن يوزع غزله على أدوار ثلاثة في هذه الصورة التي
رسمناها ، فدائحه تتوزعها أيضاً أدوار ثلاثة تقابلها ، فقد بدأ مدائحه في
السجن ، يرسل بها إلى أبي الحزم مستعباً مستعظماً كما يرسل بها إلى ابنه أبي الوليد
وهذا هو الدور الأول من مدائحه ، وهي تأخذ شكل استعطاف واسع .
ويمكن أن تلحق بهذا الدور الفترة التي قضاهها بعد فراره من سجنه وقبل استصدار
العفو عنه ، كما تلحق به قصيدته لأبي حفص بن برد وأستاذه أبي بكر مسلم
ابن أحمد . وترد حربة الشاعر إليه ، وما يلبث أبو الحزم أن يتوقى ويخلفه ابنه
أبو الوليد ، فيقرب الشاعر منه ، ويجعل له النظر على أهل الذمة ، ولا يزال

يَرْتَفِعُ بِهِ ، حَتَّى يُسَلِّمَ إِلَيْهِ مَقَالِيدَ دَوْلَتِهِ . وَفِي هَذِهِ الْحَقْبَةِ يَبْدَأُ الدُّورَ الثَّانِيَّ مِنَ
مَدَائِحِهِ ، إِذْ يَمْدَحُ أَبَا الْوَلِيدِ مَدْحًا فِيهِ إِخْلَاصٌ ، وَلَعَلَّنَا لَا نُنْبَعِدُ إِذَا قَلْنَا
إِنَّ قَصِيدَتَهُ الْكَافِيَةَ :

مَا لِلْمُدَامِ تُنْدِيرُهَا عَيْنَاكَ فِيمِيلٍ فِي سَكْرِ الصَّبَا عِطْفَاكَ
هِيَ أَوْلَى قِصَائِدِهِ الَّتِي مَدَحَهَا بِهَا بَعْدَ اعْتِلَائِهِ عَرْشَ قَرْطَبَةَ ، فَفِيهَا فَرْحَةٌ
الصَّدِيقِ بِصَدِيقِهِ ، الَّذِي سَيَحْقُقُ لَهُ آمَالَهُ . وَعَيْنَهُ أَبُو الْوَلِيدِ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ .
وَكَأَنَّ هَذِهِ الْوِظِيْفَةَ كَانَتْ دُونَ مَا يَصْبُو إِلَيْهِ ، فَكَتَبَ قَصِيدَةً يُمْكِنُ أَنْ نَسْمِيَهَا
« مَلْتَمَسُ الْوِزَارَةِ » وَفِيهَا يَقُولُ :

فَدَيْتِكَ إِنِّي قَاتِلٌ فَمَعْرُضٌ^(١) بِأَوطَارِ نَفْسٍ مِنْكَ لَمْ تَقْضُهَا بَعْدُ
مُنَى كَالشَّجَا^(٢) دُونَ اللَّهَاءِ تَعَرَّضْتُ فَلِمَ يَكُ لِلْمَصْدُورِ مِنْ نَفْسِهَا بُدُ
لَعَسْرِكَ مَا لِلْمَالِ أَسْحَى فَإِنَّمَا يَرَى الْمَالِ أَسْنَى حِظَّهُ الطَّيِّعُ^(٣) الْوَعْدُ
وَلَكِنْ لِحَالٍ إِنْ لَبِسْتُ بِهَا لِمَا كَسَوْتِكَ ثَوْبَ النَّصِيحِ أَعْلَامُهُ الْحَمْدُ
وَأَنَالَهُ أَبُو الْوَلِيدِ أَمْنِيَّتَهُ ، وَلَقَبَهُ « ذَا الْوِزَارَتَيْنِ » وَنَدَبَهُ لِلسَّفَارَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
مُلُوكِ الطَّوَاتِفِ ، فَكَانَ يَمْدَحُهُمْ وَيُنثِي عَلَيْهِمْ ، وَيَذَكِّرُهُمْ حَسْنَ اسْتِقْبَالِهِمْ
وَجَمِيلِ ضِيَافَتِهِمْ

وَلَا يَزَالُ فِي هَذَا الدُّورِ الثَّانِيِّ مِنْ مَدَائِحِهِ ، حَتَّى تَوَجَّهُ إِلَيْهِ تَهْمَةٌ الْإِشْرَاقِ
فِي مَثَابِرَةِ بَنِي ذِكْوَانَ عَلَى السُّلْطَانِ . وَلَا تَثْبُتُ إِدَانَتُهُ ، وَلَكِنْ تَقُومُ جَفْوَةٌ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ أَبِي الْوَلِيدِ ، فَيُؤَيِّدُ وَجْهَهُ نَحْوَ إِشْبِيلِيَّةٍ . وَهَنَّاكَ يَبْدَأُ الدُّورَ الثَّلَاثَ مِنْ مَدَائِحِهِ
الَّتِي جَعَلَهَا خَالِصَةً لِلْمَعْتَضِدِ وَابْنِهِ الْمَعْتَمِدِ

وَمَعْنَى هَذَا كَلِمَةُ أَنَّ تَرْتِيبَ الْمَدَائِحِ فِي الدِّيْوَانِ يُمْكِنُ أَنْ يُعَالِجَ فِي يُسْرٍ
وَسَهْوَةٍ . وَفِي الدِّيْوَانِ قِصَائِدٌ وَمَقْطُوعَاتٌ تَتَّصِلُ بِأَهْلِ قَرْطَبَةَ . بَعْضُهَا يُمْكِنُ أَنْ
يَلْحَقَ بِالدُّورِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمَدَائِحِ ، أَوْ قَلَّ بِالِاسْتِعْظَافِ كَشَعْرَهُ فِي ابْنِ عَبْدِوَسٍّ وَبِجَدِّهِ
لَأَمَّهُ ابْنُ زُبَيْرٍ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَعْضُهَا يُمْكِنُ أَنْ يَلْحَقَ بِالدُّورِ الثَّانِيِّ كَشَعْرَهُ
فِي بَنِي ذِكْوَانَ ، وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الدُّورِ شَعْرُهُ فِي مُلُوكِ الطَّوَاتِفِ وَوِزَرَائِهِمْ .

(١) الشجا : ما يعترض في الالهة أو الحق .

(٢) اطع : التميم .

وكل ما نظمته في طرطوشة أو بطليروس أو بلنسية . أما شعره في بعض أهل
إشبيلية من مثل أبي عامر بن مسلمة وأبي بكر بن القصيرة فيلحق بالدور الثالث
من مدائحه .

على أنه ينبغي أن نشير إلى أن في الديوان مسمّطين ، ومقطوعات خفيفة من
الألغاز والأحاجي ، وكان المعتمد يجاوبه ويحاوره فاكماً لألغازه ومعمياته ،
وكأنها كانت حيلة يصنعها ابن زيدون لغرض التسلية وقتل الوقت .

٢ - شاعريته

يقع ابن زيدون في الذروة بين شعراء الأندلس من حيث ملكات التعبير
الأدبي وما صاحبها من إبداع فني . وقد أشاد به كل من تحدثوا عنه أو ترجموا
له من السابقين ، وخاصة ابن بسام في الذخيرة إذ يقول : « له شعر ليس للسحر
بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقترانه » . وقد تعاقب الكتاب والمؤرخون يشنون على
حمال ديباجته ورونق أسانيبه ، فالجميع مشدوه لروعة نظمه وشدة أسرهِ . ونحن
لا نرجع إلى ديوانه ونقرأ القصيدة الأولى فيه التي وجّه بها إلى أبي حفص بن برد
من سجنه حتى ينجأنا هذا التسج البديع :

يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَاسُو	ما على ظنّي باسُ
ء على الآمالِ يَاسُ	ربما أشرفَ بالمرُ
ل " وِيرُدِيكَ احْتِرَاسُ	ولقد ينجيك إغفا
والمقادير قِياسُ	والمحاذيرُ سهامُ
ولكم أكندى التماسُ	ولكم أجدى قعودُ
عزّ ناسُ ذلّ ناسُ	وكذا الدهرُ إذا ما

ومن هذه النغمة الأولى الصافية النقية تنصب بقية النغمات في الديوان ،
فليس في موسيقاه وألحانه أي شائبة ، إنما فيهما الخفة والرشاقة ، ولذلك كانوا

يشبهونه بالبحترى ، بل كانوا يسمونه بحترى المغرب لسلاسة شعره وانسيابه
كأنه الماء العذب السلسيل .

وليس من شك في أن هذا يدل على أنه طَبَعَ فنَّه بالطوابع العربية الأصيلة ،
فقد أخذ نفسه على ما يظهر بثقافة واسعة للشعر الذى سبقه من العصر الجاهلى
إلى عصره ، ولم يدخر وسعاً في قراءة دواوينه والوقوف على أسراره ، وكأنه كان
يشعر شعوراً قوياً بأن الشعر ينبغي أن لا ينفصل قديمه عن حديثه ، ففزع
إلى جداوله المختلفة ينهل منها ويعبّ ، محتدياً بأمثلة سابقيه ، غير خارج ولا ناثر
على قواعدهم وقوالهم الفنية المرسومة .

ولم يلبث أن نفذ إلى موسيقاه الرائعة ، وكأنما حفزه ما قرأه لكبار الشعراء
أمثال البحترى وأبى نواس وأبى تمام وابن المعتز والمتنبى وأبى العلاء إلى أن تكون
له موسيقاه ، ويكون له عزفه وإيقاعه وتكون له قوالبه الحية الجذابة .

وطبعي لهذا الشاعر الذى اختبر أوتار القيثارة العربية أدق اختبار ،
واستمع إلى شدوها ونغماتها أرهف استماع ، أن يشتد تأثيره بمن سبقوه ،
وأن يستعير منهم في الحين بعد الحين ، وخاصة أن هذا الصنيع كان ضريبة
مفروضة على الشعراء الذين تقدموه جميعاً لا عند المغمورين منهم ، بل عند
أفذاذهم ممن سميناهم .

فإذا خلف من بعدهم ابن زيدون ، وجرى على رسمهم ، وعكف على
نماذجهم ، واحتذى أمثلتهم ، لم يكن خارجاً على العرف الشائع ، بل كان
مطرداً مع سياق صناعته وأسلوبها الذى اصطلاح عليه الشعراء عامة .

ووقف ابن بسام طويلاً عند هذا الجانب من شعره ، فكاد لا يترك بيتاً له
التقط معناه أو انفضه من شعر غيره إلا نبّه عليه . وهو في العادة يعرض القصيدة
الجيدة من قصائده ، ثم يعود إليها بالتصفح ، فكلماً وجد معنى أو لفظاً مشتركاً
بينه وبين من سبقوه دلّ على موضع أخذه وموطن استعارته . فن ذلك قصيدته
الفائية التى مدح بها المعتضد صاحب إشبيلية ، وهى أجل وأروع مدائحه
جميعاً ، فقد وقف في نسيبها عند هذين البيتين :

وما تَلَعَى بِالرَّاحِ إِلَّا تَوْهَمٌ لظَلَمٌ^(١) بِهِ كَالرَّاحِ لَوْ يُتَرَشَّفُ
وَيُذَكِّرُنِي الْعِقْدَ الْمُرِينَ جَمَانُهُ مِرْنَاتٌ وَرُقٌّ فِي ذُرَى الْأَيْكِ هَتَفُ

فلاحظ أنه قلب في البيت الأول قول المتنبي :

وما شَرَّقِي بِالمَاءِ إِلَّا تَذَكُّرًا لمَاءٍ بِهِ أَهْلُ الحَيْبِ نُزُولُ

أما البيت الثاني فنسخ فيه قول أبي تمام :

وبالْحُلِيِّ إِنْ قَامَتْ تَرْتَمُ فَوْقَهَا حَامًا إِذَا لَاقَى حَامًا تَرْتَمَا

واستمر فوقف في المديح عند هذه الأبيات الثلاثة :

طَلَاقَةٌ وَجْهٌ فِي مَضَاءٍ كَمَثَلِ مَا يَرُوقُ فِرْنِدُ السَّيْفِ وَالْحَدُّ مَرْهَفُ
ولما حضرنا الإِذْنَ وَالْمَدْرُ حَادِمٌ تَشِيرُ فَيَمْضِي وَالْقَضَاءُ مَصْرَفُ
وَصَلْنَا فَقَبَلْنَا النَّدَى مِنْكَ فِي يَدٍ بِهَا يُتَلَفُ المَالُ الجِسْمُ وَيُخْلَفُ

ولاحظ أنه استعار البيت الأول من قول البحترى :

وَيَحْسُنُ دَلَّهَا وَالْمَوْتُ فِيهِ كَمَا يَسْتَحْسِنُ السَّيْفُ الصَّقِيلُ

كما استعار البيتين الثاني والثالث من قوله أيضاً في الهيبة :

ولما حضرنا سُدَّةَ الإِذْنِ أَخْرَجْتُ رَجَالَ عَنِ البَابِ الَّذِي أَنَا دَاخِلُهُ
فَأَقْضَيْتُ مِنْ قَرَبٍ إِلَى ذِي مَهَابَةٍ أَقَابِلَ بَدْرِ التَّمِّ حِينَ أَقَابِلُهُ
ولما تأملتُ الطَّلَاقَةَ وَانْتَبَيْتُ إِلَى بَيْبِشْرِ أَنْسَتَنِي مَخَائِلُهُ
ذَنُوبٌ فَقَبِلْتُ النَّدَى مِنْ يَدَامَرِي كَرِيمٍ مِجْمَاهُ سِبَاطُ^(٢) أَنَامِلُهُ

وهذه الاستعارات كلها تدل على أن ابن زيدون لم يكن ينقل عن سابقه « طبق الأصل » بل كان يتصرف تصرفاً على هياكل وصور مختلفة . وهذا من حقه هو وغيره من الشعراء إذ يتعاونون على موضوعات ومعاني مشتركة ، فلا بأس أن يُفِيدَ كل منهم من سابقه ، وأن يحتذى في بعض شعره على مثال موروث ، ما دام يحسن عرضه ، وما دام يخرج عن القالب القديم إلى قالب

(١) الظلم : بريق الأسنان .

(٢) سباط : جمع سبط : نقيض الجعد . ويقال سبط اليمين والبنان : كريم .

له جديد . إذ تصبح المعاني كالعُملة تنفق في المعدن ، وتختلف في طريقة الضرب وهيئة الصورة بين بلد وبلد وقطر وقطر .

وكان ابن زيدون يحسن ضَرْبَ الخواطر والمعاني القديمة أو الموروثة في عُملة أندلسية جديدة ، فيها جمال الفن وبهجة الشعر ، وما يُفصح عن أصالته وشخصيته . ونفس القصيدة التي تنتسب إليها أبياته السابقة من أبدع ما نظمه شعراء الأندلس في عصورهم المختلفة . ويستطيع القارئ أن يعود إليها في النماذج المنتخبة ليرى أنها مثل رفيع من أمثلة التَّسْجِجِ المماسك والسبك الرائع . ولن يضيره بحال أن يكون قد استعار فيها معنيين أو ثلاثة أو أربعة من غيره . فذلك شأن الشعراء جميعاً من قبله ، إذ يردد كل منهم قول عنتره الشاعر الجاهلي المشهور « حل غادر الشعراء من مَرْدَمٍ » .

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن هذا الصنيع الذي استمر بين أصحاب الشعر العربي مهما غربوا أو شرقوا كان أهم الأسباب في المحافظة على إطاره العام ، فقد ظل امتداداً لماض بعيد وتعبيراً عن حاضر قريب ، وظل الشعراء يجمعون جذائذاته الفنية الموروثة . ويعيدون صنعها ، مضيفين ما يعبر عن مواهبهم وأحيانهم واستجاباتهم للحياة التي تجري تحت أعينهم . والمسألة في رأينا كانت مسألة حِسٍّ دقيقٍ للعرب بالماضي ، وهو حس نجده في الآداب جميعاً ، حس يصل بين الأجيال السابقة واللاحقة في الأمة ، وهو حس لا يفصلها من حاضرها ، بل يؤكد الحاضر فيها ، ويساعدها على أن تتمثله تمثلاً واضحاً ، وأيضاً فإنه يُعنى الشعراء مما قد يصيبهم من كملل إذ يتحول خيالهم إلى الماضي يُفيدون منه موارد جديدة .

على كل حال يصور لنا ابن زيدون في شعره هذه الروح العربية العامة التي تتمسك بالماضي والتقاليد الموروثة . وكأنما كانت هناك إبر مغناطيسية تجذب شعراء العرب بعضهم إلى بعض ، فتمتثابه أساليهم ، ويتشابه إطارها . ولكن دون إخلال بتعبير كل منهم عن شخصيته ونفسيته وحوادثه الشعورية الخاصة .

وابن زيدون من خير النماذج التي تكشف لنا المترعين . فهو لا يخرج في شعره على القواعد الموروثة ، وفي الوقت نفسه ينبض شعره بحياة عصره وما كان

فيه من حضارة وترف باذخ وإغراق في الحس والحمر واللذة ، فاتصاله بالماضي لم يحل بينه وبين تصوير الحاضر الذي عاش فيه .

أما نفسه وأما حبه فقد أودعهما شعره ، ومثلهما في صورة تخفق بالحياة ، إذ لم يصدر فيها عن تجربة كاذبة ، بل صدر عن تجربة صادقة ضغطت على شعوره وقلبه ، ولم تلبث أن حطمت فؤاده حطماً ، فقد انصرفت صاحبتة عنه ، وأفلتت منه . أما هو فلم ينصرف بل ظل تتبعها نفسه ، وظلت كل خالجة من خوالجته تمفو إليها ، ولم يكن أمامه إلا قيثارته ، فذهب يلحن عليها شجونه وحنينه الدائب المستعر ، في لفة ولوعة شديدة لعل من أروع ما يمثلها قصيدته :

أضحى الثنأى بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وفيا يقول :

حالت لفقديكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألُّمنا ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الوصل دانيةً قطوفها فجنينا منه ما شينا
ليستق عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
ياجنة الخلد أبدلنا بسلسلها والكوثر العذب زقوماً وغسلينا

وهي قصيدة تفيض بالحنين والحب والولاء مع الحفاء ، وكأنما يصب فيها زفراته ، وينثف لوعاته ، وهي لوعات محب بلغت به حمى العشق درجة عالية من الدرجات العاطفية الحادة . ودائماً نلتقى في ديوانه بمثل هذه القصيدة ، ومن أروع ما فيه قصيدة بعنوان « ذكرى ولادة » كتبها إليها بعد خروجه من مجننه وقبل العفو عنه ، إذ ألم بالزهراء ، ضاحية قرطبة الفاتنة بمناظرها الطبيعية ، فلم يكذب يرتادها ، وقد خلج عليها الربيع حُلله ، ونثر فيها زهره ووردة وطيّره ، حتى تشوق إلى حبيبته وتلهف على لقاءها ، فناجها من بعيد :

إني ذكرك « بالزهراء » مشتاقا والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله كأنه رق لي فاعتل لإشفاقا

والروضُ عن مائه الفضىُّ مبتسمٌ
يومٌ كأيامٍ لذاتٍ لنا انصرفتُ
تلهو بما يستميلُ العينَ من زهرٍ
كانَ أعيتهُ إذ عاينتُ أرقى
وردٌ تألقتُ في ضاحي منابته
سرى يُنافحه نيلوفرٌ عبقٌ
كلُّ يهبجُ لنا ذكرى تُشوقنا
لا سكنَ الله قلباً عن ذكركمُ
لو شاء حملي نسيمُ الصبحِ حين سرى
لو كان وفى المنى في جمعنا بكمُ
كان التجارى بمحض الودِّ مذ زمن
فالآن أحمد ما كنا لعهدكمُ

وواضح ما تموج به هذه المناجاة من مختلف المشاعر ومتنوع الخواطر ، فهو محب قلتي بين اليأس والرجاء ، وهو ينظر في الطبيعة حوله ومباهج الربيع ، فيشعر كأن كل شيء يشاركه في همومه . ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه المقطوعة تجربة نفسية كاملة للشاعر على قلة ما نجد من ذلك في شعرنا العربي ، فالشاعر يعطينا نفسه من خلال الطبيعة التي يصفها ، يعطينا ألمه وحزنه واضطرابه وحينه المشتعل الذي لا يسكن ولا يهدأ ، فقد تحول كل ما فيه إلى جذوة للحب تنتقد وتستعر ، ولم يعد يملك من دنياه إلا دموعه ، وإلا زفراته ، وإنها لتكاد تحرق ضلوعه .

وقما يتزع هذا المترع من البكاء والحنين المسمَّطان اللذان أشرنا إلى وجودهما في الديوان ، فهو فيهما يبكي المعاهد والآثار التي كان يقضى فيها مع حبيبته أمسياته ولياليه ، وكأنه يبكي رسوماً دارسة ، وهو يكتر من هذا البكاء ويكتر من الوقوف على تلك الأطلال التي انطمس تذكراها في نفس معشوقته ، ولكنها لا تزال ماثلة أمام بصره .

وأكبر الظن أننا لا نعدو الحقيقة إذ قلنا إن ابن زيدون هو أهم شاعر

وحداني ظهر في الأندلس ، فهو أستاذ هذا الفن هناك ، إذ كان أول من
اعتصر فؤاده شعراً عذباً فيه جَوى وحرقة وهوى ولوعة ، وتبعه أصحاب الموشحات
والأزجال يصوغون على هديه ويحتذون بمثاله .

وعلى نحو ما اعتصر فؤاده اعتصر اللغة نفسها ، واستخرج منها كل إمكاناتها
الموسيقية ليشدو ألحانه المشجية التي ملكت على العرب ألبابهم في عصورهم
القديمة والحديثة ، حتى جعل كبار شعرائهم من همهم أن يعارضوا بعض قصيده ،
كمن يظفروا ببعض أنغامه ، فعارضه صفي الدين الحلبي والصفدي وأخيراً شوقي
في نونيته^(١) الأندلسية ، إذ صاغها على نمط نونيته (أضحي التثاني بديلا من
تدائينا) كما صاغ كافيته اللبنانية^(٢) التي يغنى مقطوعة منها عبد الوهاب على
نمط كافيته (ما للمُدام تديرها عينك) وقد عبر أجمل تعبير عن إعجابه به في
قوله :

ابنُ زيدونَ عبقرىُ زمانه قصرَ المحسنون عن إحسانه
أخذ الرومُ في الجزيرة عنه ومشوا في خياله وافتنانه

وليس روم الأندلس وحدهم هم الذين أخذوا عنه لوعة فؤاده وعمق عشقه ،
بل أخذها أيضاً في جنوب فرنسا جماعة التروبادور الذين تأثروا فيما بعد أصحاب
الموشحات والأزجال من الأندلسيين ، فعلمه أو بعبارة أدق غزله كان واسع
التأثير بما فيه من عمق الهوى وعذاب الحب وحرقة العشق .

(١) مطلع هذه النونية :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

(٢) مطلع هذه الكافية التي نظمها شوقي في زحلة :

شيعت أحلامى بقلب بياك ولمت من طرق الملاح شباكى

جاء في ديوان شوقي (ولحت) بدلا من (لمت) وهو خطأ من الناشر .

٣ - رسالته الهزلية

مرّ بنا في غير هذا الموضوع أن ابن زيدون كتب هذه الرسالة على لسان ولادة لابن عبدوس منافسه في حبها ، وهي رسالة طريفة من حيث الأسلوب الذي اتبعه فيها ، إذ أحرى على لسان معشوقته تهكماً واستهزاء بغيره ، بلغ فيهما شأواً بعيداً في الإجابة .

وكل من يتصفح الرسالة يستطيع أن يرى المشابهات الواضحة بينها وبين رسالة التربيع والتدوير للجاحظ ، ومعروف أن الرسالة الأخيرة تعرّض فيها الجاحظ لأديب كان يُكثّر من نقده وذمّه ، وهو أحمد بن عبد الوهاب الكاتب البغدادي ، واتفق أن كان هذا الأديب قصيراً مملوءاً ، فنعته بأنه مربع مدور ، واستمر يُضفي عليه صوراً ساخرة من الجمال ، وصوراً أخرى من المعرفة ، ووقف منه موقف المتعلم يسأله عن مشاكل الفلسفة والعلم ، وأورد عليه كثيراً من أسماء الرجال في كل ميدان من ميادين الثقافة .

وقرأ ابن زيدون هذه الرسالة وأعجب بها ، فحاول أن يصنع على مثاله هذه الرسالة الهزلية ، وهو يستلها بدم ابن عبدوس ، إذ يقول :

« أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البيّن سقّطه ، الفاحش غلطه ، العائر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المهافت تهافت الفراش في الشهاب » .

وتنطلق ولادة - فالرسالة على لسانها - تصف رسوله إليها وما زينت ، حتى خيّلت لها أنه جمع كل الفضائل من جمال وقوة وسلطان وحسن منادمة وشجاعة ووفاء وحلم وكرم ودهاء وذكاء وبيان وعقل وفلسفة وكلام ومقالة ونحلة ،

مهو المثل الأعلى في الأخلاق ، وهو المثل الأعلى في الثقافة . وفي كل لون من ألوان الأخلاق وكل صرب من ضروب الثقافة تذكر شخصاً يمثله من ملوك الأعاجم وسادة العرب وفلاسفة اليونان وأصحاب الكلام والفقه . وتذكر أن صاحبه رفعتة فوقهم مكاناً علياً .

وكل ذلك يجري مجرى التهكم مما يستطيع القارئ أن يرجع إليه في فصل التماذج . فهى ترفع من تخاضبه كأنها أو كأن ابن زيدون يريد أن يرميه من حائق . وهى تخلط ذلك بسرد الأمثال والأبيات التي تجرى مجراها مستمدة منها المزج به والعبث بعقله . وما تليث أن تُفصح عما في نفسها ، فتمتعه وتندره ، ثم تنهال عليه بالسباب والشتائم . فالشرق والغرب لا يجتمعان ، والحبيث والطيب لا يستويان . وتعود فتبقر وترعد « فالنار ، ولا العار ، والمثية ، ولا الدنية . والحرة نجوع ولا تأكل بثديها » وتقول له لا يغرنك من شهدت حوى من أقار العصر وريحان مصر . وأين أنت وهم ؛ إيهام في السماء ، أما أنت ففي الخضم والأسفل . وما تزال به حتى تحضه على الندامة من محاولة دنوه منها والاستغفار مما حدثته نفسه بها .

وكل ذلك يساق في سيول من الأمثال ، وأبيات منثورة من الشعر ، غير الأعلام وأسماء الرجال الذين تزخر بهم الرسالة ، وكأن ابن زيدون يؤلف متناً من المتون ، فالإنسان لا يخلص من معرفة شخص ممن يشير إليهم ، حتى يقع في مثل أو في حادثة أو في بيت شعر يحتاج إلى فضل من الشرح ولهذا كله عمد ابن نباتة إلى شرح الرسالة وسمى صنيعة « شرح العيون شرح رسالة ابن زيدون » .

٤ - رسالته الجديدة

كتب ابن زيدون هذه الرسالة وهو في السجن ، يستعطف بها أبا الحزم جهوراً ، كى يطلق وثاقه ، ويعيد إليه حريته المسلوبة ، وهى لا تقل جمالا ولا إبداعا عن سابقها ، بل لكأنها قصيدة نظمها ، فمهما انفعال حاد ، وفيها عاطفة ملتهبة ، وفيها اضطراب وقلق شديد ، قلق الليل الحبيس فى غياهب السجن وظلماته .

وهو يفتتحها باستعطاف أبى الحزم واستئزال صوب رحمته وعطفه متأدباً فى خطابه ، مثنياً عليه ، مادحاً له ، متعللاً بالآمال فى العفو عنه ، مستطرداً إلى وصف ذنبه ، وأنه لا يبلغ شيئاً بجانب الذنوب الكبيرة المعروفة عند فقهاء الإسلام ومؤرخيه ، وكأنه يريد منه أن يستصغر خطيئته ويغفرها له .

وما يلبث أن يتصل من جريرته فلا ذنب إلا نعمة نفثها كاشح وشاية بها كاذب ، واستطرد فذكره بأنه من شيعته ، ومثله لا تضيع وسائله ، ولا تضيق مذاهبه ، بل مثله ينبغي أن يدركه أبو الحزم حين تلم به حادثة أو تنزل به كارثة ، فهو شاعره الذى يُدبج فيه مدائحه ، وإنه ليستعيد به أن يكون « كالدُّبالة المنصوية تضىء للناس وتحترق » .

وهنا تتور نفسه ، فيعلن أنه لا يصبر على الذل والهوان ، ويلتمسح بأنه يستطيع مفارقة الوطن الذى ينكره إلى حيث يجد من يضحكونه « قبل إنزال رحله ويعطونه حكم الصبى على أهله :

وقيل له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مبيتٌ صالحٌ ومقيلٌ»

وأخذت ثورته تهدأ ، فعاد إلى صوابه ومحبة وطنه ، وأعلن أنه لا يؤثر عليه وطناً غيره ، كما أعلن أنه لا يختار على أبى الحزم ملكاً آخر من ملوك

عصره ، ودلف من ذلك إلى استعطافه والمبالغة في تملقه حتى يعفو عن جنابته .
 وذيل الرسالة بقصيدة في مدحه واستذلال نفسه له وطلب العفو والغفران منه .
 والرسالة تمتلئ كسابقها بذكر الأحداث والأعلام التاريخية ، كما
 تمتلئ بذكر الأمثال ، تتخلل ذلك عبارات ، نُزعت من الشعر والنثر القديم .
 من أجل ذلك كانت هي الأخرى تشبه ممتناً من المتون ، وكانت ألفاظها
 وأساليبها في حاجة إلى بيان وتفسير ، وهذا ما حدث فعلاً فقد شرحها الصفدي
 في كتاب سماه « تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون » . وواضح أنه شعر في
 دقة بما نقوله من أنه يعالج ممتناً يشبه متون العلم لا رسالة أدبية ، فهو يسمي
 شرحه « تمام المتون » ، إذ يرى نفسه إزاء رموز من الوقائع والتاريخ والأمثال يعوزها
 غير قليل من التوضيح والبيان .

ويستطيع القارئ أن يرجع إليها في فصل النماذج ليرى أنها تحتوى بجانب
 ما ذكرنا على اقتباسات من القرآن الكريم وتضمينات من الحديث . فهي ممتن
 بأدق ما تدل عليه هذه الكلمة . ولا يبنى ذلك أنها رائعة من الوجهة البلاغية ،
 وخاصة حين يترك ابن زيدون الرمز والإشارة ويعمد إلى الاسترسال في كلامه ،
 إذ يبينه من لفظ جزل رصين ، فيه قوة ، وفيه سحر وجمال .

ونالت هذه الرسالة الجدية وسابقها الهزلية شهرة مدوية في تاريخ الأدب
 العربي ، للبراعة الأدبية فيهما من جهة ، ولما احتوتا من وقائع التاريخ وحوادثه
 وأسماء الرجال وأبيات الشعر الجيدة والأمثال من جهة ثانية .

ولم يكتب ابن زيدون رسالتيه بأسلوب السجع الذي شاع في عصره بالشرق ،
 بل كتبهما بأسلوب النثر الحر الطليق . ولعل في هذا ما يدل دلالة قاطعة على
 أن الأندلس لم تكن قد ارتبطت حتى هذا العصر ، عصر ملوك الطوائف ،
 بأهلوس السجع ، بل كانت لا تزال أقرب إلى الفطرة والطبع .

وليس ابن زيدون وحده الذي استخدم الأسلوب المرسل في نثره ، فن حوله
 استخدمه ابن شهيد في رسالته « التوايع والزوايع » كما استخدمه ابن حزم في
 رسالته « طوق الحمامة » . ومع ذلك فقد كان بين الأدباء من يلتزم السجع على
 نحو ما نجد عند ابن بررد الأصغر في رسالته .

ومهما يكن فقد كان ابن زيدون بارعاً في صوغ الكلام سواء أحاله شعراً أم أحاله نثراً ، وكانت لديه قدرة بديعة في حوكة ونسجه مهما يكن الخيط الذي يحوك عليه أفكاره ، وينسج حوله ألفاظه ، ضعيفاً أو واهياً . ويروى الرواة أن بنتاً له توفيت ، فوقف للناس بعد جنازتها يتقبل عزاءهم ويشكرهم ، فلم يجب أحداً بعبارة أجاب بها غيره . وهذا دليل ناطق على سعة تصرفه في التعبير وقدرته على التفنن في استخدام الأساليب . وأظن من حقنا أن نقول إنه كان فلتة من فلتات عصره ، سواء في شعره أم في نثره .